آليات صناعة المشهد الحكائي في نصّ قديم

المبحث مدرج في الفصل الثاني من الباب الثالث، وعنوانه:

الحكاية بين التوثيق التاريخي القديم وإبداع التخييل

ضمن رسالته لنيل درجة الدكتوراه في الآداب

الرسالة بعنوان

أخبار عمرو بن العاص دراسة في صناعة الحكاية

مبحث مقدم

من الطالب/ ممدوح سالم شحات أحمد

إشـــراف

الأستاذ الدكتور/ محمود عبدالحفيظ

أستاذ الأدب العربي

كلية الآداب- جامعة الزقازيق

آليات صناعة المشهد الحكائي في نصّ قديم

١- آليات ما قبل فواتح النَّص.

ليست حكاية عمرو بن العاص وجعفر بن أبي طالب بغريبة في سجلات التاريخ، أو فيما تداوله الرواة من أخبار عمرو عند النجاشي؛ بل يمكننا القول إنها إحدى أهم الحكايات التي تداولها الرواة في ظل قصة إسلام عمرو من بعدُ، هذا من ناحية؛ وفي ظل عدل النجاشي إذ أنصف جعفر وفْد المسلمين، ولم ينحز إلى عمرو بفعل صداقته له من ناحية أخرى..

لكن هذه الحكاية تكمن غرابتها من جهة ما تنطوي عليه من آليات حجاجية تضمنها خطاب النجاشي، فضلًا عن خطاب كل من عمرو وجعفر.. إنها (حكاية تنطوي على الثنائيات المتقابلة)(١) على حد قول نبيلة إبراهيم.

وقد اتخذت هذه الثنائيات في هذه الحكاية ما يمكن وصفه بالثنائيات المشاغبة، وقد يبدو التوصيف شاعريًا إلى حد كبير، لكنه مقصود من عدة نواح، هي: ثنائية السعي، وثنائية الهدف، وثنائية الفرد والمجتمع، وثنائية الفكر والثقافة، وثنائية الاستناد إلى التراث في الاستدلال (خطاب جعفر) في مواجهة النزعة القبلية الموجهة (خطاب عمرو).. إنها ثنائيات أحدثت تأطيرًا أفقيًا ورأسيًا للحكاية، وهي (ثنائيات متعارضة تخلق بناء في المعنى) (٢)

ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من تلك الثنائيات وصفًا لتلك الحكاية؛ إذ نرى أنها حكاية تعكس مستوى حضاريًا راقيًا في مستوياته العليا..؛ وذلك على كافة جوانبه المشكّلة له.وقد أشار (بارت) إلى أهمية الفواتح النصية في الخطاب، وتحدث عن صعوبة الكلام وعسر تأتِّيه، وكان ذلك في معرض دعوته طلابه إلى دراسة المقدمة الروائية؛ والبحث في قضية افتتاح الخطاب، ويرى أن دراسة مفتتحات السَّرد إذن مهمة جدًا، ويؤكد على أنه (سيكون من المثير معرفة ماهية المعلومات الضمنية في مطلع؛ لأن هذا الموقع من الخطاب غير مسبوق بأي معلومة)(٣)؛ وهذا هو المثير فعلًا للوقوف على المفتتح السردي في الخطاب، فكونه غير مسبوق بمعطيات أو مقدمات، يجعل المتلقي مترقبًا كيف يمكن أن يصنع منه المتكلم معطى وحده، تتشكل من خلاله عدة مقتضيات لازمة، تؤدي إلى خطاب حجاجي مستوفٍ آلياته.

وإذا كان نجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسامع ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة على إقناعه، فضلا عن استثمار الناحية النفسية في المتقبل من أجل تحقيق التأثير المطلوب فيه، فإن الباحث- وبحسب هذا المقتضى- يطرح من خلال هذه الدراسة

بعض أهم الآليات الحجاجية التي يراها تسبق ما اشتهر من آليات في هذا السياق؛ وتأتي آلية المعرفة في مقدمة تلك الآليات التي تسبق آلية فاتحة النصPrologue(٤).

وتمثل آلية المعرفة العتبة الأولى قبل فاتحة النص، وذلك وفق ما يمكن تسميته: تأطير الحكاية بتصوير المشهد قبل الخطاب؛ وهذه الآلية يمكن وصفها بأنها آلية ممهدة لكل الآليات التي تليها، إذ إنها قبل فاتحة النص؛ ولا شك أنها كثيرًا ما تشغل فكر الإنسان قبل عقد أي لقاء بينه وبين الآخر، وكثيرًا ما يرسم المرء من خلالها (سيناريو) للأحداث المتوالدة من اللقاء، فضلًا عن طبيعة الحوار الذي يتشكل بها.

إن اللجوء إلى آلية المعرفة قبل فاتحة النص، لا سيما إذا كان روائيًا، يحجب عن المتلقي ذلك الارتباك الذي يحدثه مَن يقدم للنص من النقاد، مستعملًا أدواته المحفوظة في كل النصوص دون مراعاة لتلك الخصوصية التي تفرق بين نص وآخر؛ ويلفت محمد عبد المطلب النظر إلى الآلية الصماء التي تسيطر على بعض النقاد ممن يتصدون للنص الروائي؛ فإذا كان الناقد بصدد نصّ روائيّ، فإذا هو (يفتح حقيبته على أدواته المحفوظة بدءًا من العنوان، ثم الزمن، والاستباق، والاسترجاع، والوقفة والحذف، والراوي الخارجيّ والداخليّ، والحوار المباشر وغير المباشر، إلى آخر هذه الأدوات التي يلصقها بكلّ نصّ، حتى أصبحت النصوص كلّها نصًّا واحدًا، لا فرق بين هذا وذاك) (٥)

إن تجربة أ.د (محمد عبد المطلب) فيما أسماه هو- بعد ذلك- في نسق أشبه (بحقيبة السباكة) التي يستعملها النقاد، أفسدت على المتلقي جماليات النصّ.. بل يمكننا القول إنها أفسدت آليات التلقي لدى القارئ؛ فما يصلح لنص لا يصلح لآخر.. (فالنص له حقوقه الشرعية التي تفرض على الناقد التعامل معه بأدوات تنبع من ذاته، وبما فيه من خواص)(٦)

إن ما أود قوله أن هذه الآلية أشبه ما تكون بـ(مقتضى الحال) في سياق السرد البلاغي؛ وذلك استنادًا إلى أن البلاغة هي: (مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته)(٧).. هذا مع الالتفات إلى ارتباط البلاغة في معناها اللغوي أصلًا بالبلوغ إلى الشيء والوصول إليه).(٨)

دخل عمرو بن العاص على النجاشي، [وكان لقاءً حارًا بين الصديقين، وقد أتى بالهدايا العظيمة وأهداها إليه، وقبلها منه النجاشي، وبعد أن اطمأنّ عمرو بن العاص إلى وجود جميع البطارقة والوزراء معه]. إلى هنا ينتهي تصوير المشهد من قِبل الراوي قبلَ مفتتح نص الخطاب؛ وأرى أنه لا يقل أهمية عن مفتتح النص بلاغة واستدراجًا حجاجيًا بالفعل وإن لم يخلُ بطبيعة الحال من الكلام.

ولّما كان لكلّ جنس أدبي بلاغته النابعة من خصوصيته، كان (للشعر بلاغته، وللخطابة بلاغتها، وللرسائل بلاغتها، وللسرد بلاغته) (٩) ؛ فإن هذا يعني أننا أمام آلية حجاجية بلاغية، في الوقت نفسه، تضمن للمتلقي القراءة العميقة للنص الروائي من جهة، فضلًا

عن استكناه جماليات البلاغة الكامنة في الخطاب الروائي، لا سيما في ظل قراءة حجاجية في حكاية عمرو بن العاص وجعفر بن أبي طالب، في حضرة النجاشي..

فها هو اللقاء حارٌّ بين الصديقين-حسبما وصف الراوي المشهد إجمالًا، لكنَّ لحرارة ذلك المشهد دلالات يمكن أن تعيننا في تفسير ما يأتي من بعد؛ بل يمكن القول إنها تفتح بابًا واسعًا من المسكوت عنه لإيجاد خطاب تخييلي يصف حرارة ذلك اللقاء.. الأمر الذي يمكننا من خلاله أن نفهم أن هذا اللقاء يشير إلى استكناه رسوخ جوانب المعرفة السابقة العميقة بين الطرفين؛ النجاشي وعمرو بن العاص، وهما الصديقان هنا.. وهذا ما نعلمه عن طبيعة العلاقة قبل ذلك الحدث بين النجاشي الملك العظيم على بلاده وعمرو بن العاص التاجر العربي والداهية الألمعي الخبير في معرفة الرجال..

النجاشي ملك قد علم عنه ما علم من الجاه والسلطان وإقامة العدل وإغاثة الملهوف، وهو ملك على بلاد عظيمة هي بلاد الحبشة، ويكفي فيه قول الرسول وشهادته عنه حين أمر المهاجرين الأوائل بالهجرة إليه..

وفي حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم- فيما روى الإمام أحمد في المسند- قالت:

(لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمَّمنا على ديننا، وعبدْنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشا، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، [أي: تواطئوا واتفقوا أن يجعلوا في أثر هؤلاء الصحابة رجلين صلبين قويين صاحبي حجة ولسان وبيان، حتى يفضحا هؤلاء المهاجرة عند النجاشي] وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدمًا كثيرا ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا إليه هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا له هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا، فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته، وقالا له: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك

فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهم: نعم. ثم إنهما قربا هدايا النجاشي، فقبلها منهم، ثم كلماه..) (١٠)

قد يرى البعض وجاهة لسؤال يُطرح: إلى أي مدى يمكننا أن نقر بحجاجية المعرفة السابقة بين المتكلم والمتلقي قبل الخطاب، بوصفها آلية حجاجية ممهدة قبل فواتح النص؟ وإلى أي مدى يمكن تصور تأثيرها الدالِّ في حجاجية الخطاب؟

يشير أ.د (محمد غنيمي هلال) إلى تلك العلاقة الوثيقة بين الخطابة بمفهومها الأفلاطوني(١١) (البلاغة) وقدرة المتكلم على التفكير المنطقي السليم بما يتوافر للمرء المتكلم من قدرة معرفية بمواطن الكلام وبواطن نفوس من يتحدث إليهم، ويشير إلى رأي أرسطو فيما ترجمه الفلاسفة عنه في مراتب المعرفة، ويتوقف عند قوله: (فعلى المرء- لكي يكون قادرًا على الخطابة- أن يعرف ما للنفوس من أنواع...، وإذا توافرت للمرء هذه المبادئ عرف متى يجب أن يتكلم، ومتى يجب عليه أن يمتنع عن الكلام، ومتى يليق أن يكون موجزًا أو مطيلًا أو مبالغًا، أما قبل الوقوف على هذه المبادئ فلا وسيلة له إلى التعرف على ذلك).(١٢)

إذن، يمكننا القول في سياق ما طرح بشأن اعتبار المعرفة بين طرفي الحوار آلية حجاجية قبلية، بأن ذلك ممكنٌ.. بل يمكننا القول إنها آلية مهمة لا تقل عن الآليات المعروفة في النص الحجاجي، لا سيما في ظل وصف الطرفين بالصديقين؛ [في خطاب عمرو بن العاص إلى النجاشي] إذ إن المعرفة المتعمقة بين طرفي الحوار تلعب الدور الأكبر قبل خلق النص في إيجاد تصور كلي أو جزئي عن مفردات الخطاب، ومحتواه، ومفتتحه وختامه.

ويمكننا مطابقة ذلك بقول أرسطو السابق أنه على المرء- لكي يكون قادرًا على الخطابة- أن يعرف ما للنفوس من أنواع؛ فعمرو بن العاص يعرف السياق المعرفي- إن صح القول- للمتحدث إليه وهو النجاشي في حضرة وزرائه وكبار حاشيته، والمتحدث عنهم وهم وفد قريش من أتوا إلى النجاشي مستغيثين به. فهل سنرى انعكاسًا لتلك المعرفة القبلية في ثنايا خطابه للنجاشي؟ سنعالج ذلك بعد أن نقدم لآلية أخرى من آليات فواتح النص، وهي آلية الاستدراج، مع أهمية التنويه إلى أننا سنلاحظ أن آلية المعرفة متداخلة مفسرة لكل الآليات الحجاجية التي بُني عليها خطاب عمرو بن العاص.

فاتحة النص(١٣)

لا شك أن ابتداء القول أو افتتاح الخطاب يمثل منعطفًا وعرًا ومزلقًا خطيرًا للمتكلم؛ إذ إنه يمثل حالة خروج من الصمت إلى الكلام، ومن المسكوت عنه إلى الملفوظ به، ومن حالة السكون إلى الحركة والتفاعل بين المتكلم والمتلقي.. (وما افتتاح الخطاب بمطلب

يسير المنال؛ ففي تجارب الشعراء والأدباء، ممن يستغلق دونهم القول وينقفل الشعر، اقتناع بأن أصعب الأشياء مبادئها، وأعسر الأدب فواتحه)(١٤).

إن مفتتح الخطاب هنا، وإن كان بلا عنوان كالنصوص المعاصرة، يعادل العنوان في النص، ودوره البلاغي في كونه يتحول إلى أداة مصاحبة (تأخذ بيد القارئ حتى لا يضلّ في متاهات النصّ، فتنقطع صلته برغم أنه داخله)(١٥)

ويشير (د.عبد المطلب) إلى أن الإنشاء والتأليف يُعدّان، لعظمة دورهما وأهميتهما، بمنزلة عظيمة من إشراقة الأنوار وانكشاف الأسرار عند المتصوفة، أي أن ذلك مرجعه من باب الفتوحات الإلهية تلك التي يفتحها الرب على عبده، فقد رأينا من يعظم المفتتح على سائر الخطاب من باب الفتح بعد الإغلاق، ولكونه الاستهلال الذي يفتح الله به على من يشاء، فيستميل به قلوب الناس، ويرقق قلوبهم، فينقادون مستمعين مصغين إليه؛ فهذا الباب من الفتح الإلهي (يحصل بفضل سلطة خفية تهب المفتوح عليه قدرة غير طبيعية، بها تكون قوة الإبصار وصحوة النفس ويقظة العقل، وعلى أساسها تحصل المعرفة، وينشأ اليقين)(١٦)

ويرى ابن الأثير في المثل السائر في فصل في المبادئ والافتتاحات (النوع الثاني والعشرين): أنَّ هذا النوع هو أحد الأركان الخمسة البلاغية المشار إليها في الفصل التاسع من مقدمة الكتاب. (وحقيقته أن يُجعَل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالًا على المعنى المقصود من هذا الكلام إن كان فتحًا ففتحًا، وإن كان هناء فهناءً، أو كان عزاءً فعزاءً، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني. وفائدته أن يُعرف من مبدأ الكلام ما المراد به، ولم هذا النوع؟(١٧)

وعلى ذلك يؤكد (د.محمد غنيمي هلال) على أهمية المقدمة والمفتتح، ويرى أن المقدمة، وهي في الخطابة بدء الكلام، تعد نظير المطلع للقصيدة، والمدخل في المسرحية، والاستهلال في الموسيقا،... (ويهدف هذا المدخل إلى التمهيد للموضوع؛ لئلا تبقى عقول السامعين مغلقة دونه، وذلك ليتسنى لهم متابعة ما يُعرض عليهم من براهين وأحداث)(١٨)؛ وعليه، فإن جملة البداية لا بد أن تكون (مشحونة بمناخ النص الذي تحاول أن تؤسسه)(١٩)

ومن ثمَّ، فإنَّ المفتتح، أو جملة البداية على وجه الخصوص، لدى القارئ، بمثابة تأشيرة الدخول إلى جسر النص، أو بالأحرى الإذن باقتحامه -إن صحَّ القول- والذي يُمكِّن له الانتقال من عالمه الحقيقي إلى عالم التخييل الفاعل بحكم هويّة النص وآليات المفتتح.

٢-آليات فواتح النص

- آلية الاستدراج(٢٠) -Discourse Strategy

من البلاغَة الأصيلَة في التراث البلاغي العربي: الاستدراجُ أو بلاغة الاستدراج: وهي بلاغة حِجَاجيّة يَراها ابنُ الأثيرِ (ت٦٣٧ه) محورَ الخطابِ البلاغيّ كلّه، من مثل مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، (والكلام فيه وإن تضمن بلاغة، فليس الغرض ها هنا ذكر بلاغته فقط؛ بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم)(٢١)

وهذا بالضّبطِ شيءٌ ممّا عَناه لسانيو الخطاب الغربيونَ الذين كَتَبوا في خطط الخطاب أو مواقع الخطاب Discourse Strategy، ومَعْناه ههنا أن الاستدراجَ خطّةٌ وموقعٌ ، ترتبط بركنٍ رئيس من أركان الخطاب هو القصدُ(٢٢)

ولا شك أن الفعل الاستدراجي في معطيات الخطاب لا يقل أهمية عن الكلام دلالة وتأثيرًا، بل هما صنوان ذلك أن ابن الأثير يرى أن البلاغة مبنية على الخطاب الحجاجي. كما أشار إلى ذلك ابن الأثير والذي سبق إلى استنتاج واستخراج هذه الاستراتيجية أو الآلية من النص القرآني.

وابن طباطبا (ت٣٢٢ه) يذهب إلى دعوة الشاعر، بل إلزامه بـ (أن يسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في كتاباتهم، فإن للشعر فصولًا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة)(٢٣)

وهذا هو أبو الهلال العسكريّ (ت ٣٩٥ه) يصف حسن الابتداءات بدلائل البيان، ويوصي الكتّاب بتحسين المفتتح... (أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات؛ فإنهن دلائل البيان)(٢٤) وإلى أثر الاستدراج في مفاتح النصّ، يشير ابن الأثير كذلك إلى أن حقيقة هذا النوع هو أن يجعل (مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالًا على المعنى المقصود من هذا الكلام)(٢٥) ؛ إذن، فالاستدراج لديه هو استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ ومن ثمَّ يمكننا أن نقر بآلية الاستدراج في الفعل والإشارة والمنح والمنع إلى جانب استراتيجيتي التمويه والاستدراج في القول والفعل أحدهما أو هما معًا..

ويراه حازم- العلَويّ (ت ٧٠٥ه)، ضرورة ابتداء لأي مفتتح من الكلام، يقول ابتداءً: ينبغي لكل من تصدى لمقصد من المقاصد وأراد شرحه بكلام أن يكون مفتتح كلامه ملائمًا لذلك المقصد دالًا عليه)(٢٦).. وعلى أية حال، فإنه يمكن أن يقع التمويه بالقول في الاستدراج

بالفعل، أو يتداخلان معًا، ولا شك أن كليهما يشكلان عملًا حجاجيًا متصلًا في إنفاذ حجة منتج النص.

وهذا ما أشار إليه الراوي [في رواية أم سلمة] في مفتتح الحكاية من توصيف اللقاء بأنه كان حارًّا، ثم أتبع التوصيف بجملة الحال:

(... وقد أتى بالهدايا العظيمة وأهداها إليه، وقبلها منه النجاشي)؛ فالفعل المصاحب أو السابق لهذا اللقاء هو أن عَمرًا(قد أتى) بهذه الهدايا (العظيمة)، وأهداها إلى الملك النجاشي في حضرة الجميع..

ولا شك، إن فعل، أنه قدَّم هداياه للبطارقة قبل هذا اللقاء، وقبلوها منه..

كما أنه اطمأن إلى ترتيب ما ينبغي أن يكون، وأنه احترس لما يمكن أن يقع...؛ وهذا ما تشير إليه العبارة الآتية صراحة:

(وبعد أن اطمأنّ عمرو بن العاص إلى وجود جميع البطارقة والوزراء معه..)

إذن، فاطمئنانه لا يكون إلا بعد نجاحه في استدراج سابق للبطريرك والوزراء الذين يباركون فعل عمرو وقوله، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، فإنّ دورهم جميعًا، لا شك، جِدُّ مهم.. وعمرو بن العاص أعلم بذلك الدور، ويعلم، لطول تمرسه وخبرته، متى وكيف يمكن توظيفه في الوقت المناسب؛ لذا كان الفعل الاستدراجي التالي:

(بدأ يعرض أمره ومهمته عليه، وكان ينتقي كلماته بدقة شديدة وبحكمة عظيمة)؛ إذن، لا شك أنّ اطمئنان عمرو هذا، واستدراجه ذاك لا يكونان إلا بمعرفة سابقة متمكنة من نفس النجاشي وحاشيته؛ ما يؤكد تداخل آلية المعرفة بآلية الاستدراج، وبكل آليات تتبع بعد ذلك.

كما يمكن توصيف بدء العرض على النجاشي بالفعل العظيم من داهية كبير يعرف من أين وكيف تورد الإبل! وذلك مرجعه إلى طبعه وحنكته الحاصلة من خبرته واعتياده ذلك كثيرًا في تجارة وأمور قد تدرب عليها كثيرًا؛ فضلًا عن اعتياده المخاطبات المحاكية لذلك الموقف؛ وما كان اختيار قريش لعمرو بن العاص آتيًا من فراغ؛ إنما من معرفة وعلم كبيرين بالشخصية المختارة.

ونلاحظ أن حازم القرطاجني (ت ٥٨٤) في منهاج البلغاء، يربط التمويهات والاستدراجات بالطبع والحنكة، ويؤكد أن (التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها)(٢٧)

وتشير الدراسات المعاصرة في أسس العرض الخطابي الجيد ومهارات التواصل البشري أن من آهم الخطوات التي يجب للمحاضر أو المدرب المبهر في اللقاءات الجماهيرية المعاصرة هو إلمام المحاضر أو المدرب بأساسيات العرض الجيد، أو ما يسمى PresentationSkills، وهو برنامج أقرته الدراسات المعاصرة، والأكاديميات الكبرى من مثل Arab British Academy for Higher Education(٢٨)؛ وذلك أقرب إلى ما فعله عمرو بن العاص على أفضل صورة..!

- عمرو يستبق اللقاء المعظم بينه وبين النجاشي بإرضاء البطاركة والوزراء حتى اطمأن إليهم.

- عمرو يأخذ العهد منهم على أن يكونوا ظهيرًا له في معركته مع المسلمين المهاجرين إلى أن يسلمهم النجاشي إليه، وقد أقروا له بالولاء النفسي.

هنا نرى عمرًا يعمل على أن يتم اللقاء الأكبر مع النجاشيّ، ولم ينسَ أن يقدم له ما اعتاد من الهدايا الثمينة لا سيما الأدُم، وقد قدمها له على مرأى من وزرائه وحاشيته، ولا شك أن هذا استدراج كلي أعظم بعد أن تم الاستدراج الجزئي لمن هم دونه، وقبل النجاشي، فكان اللقاء حارًّا!

وإذن، لم يبقَ إلا المفتتح! تُرى كيف يكون؟!

وإلى أي مدى تضافرت آلية النداء وآلية الاستدراج بالعطايا، ثم بالسجود قبل الخطاب- في المفتتح؟! فقال:

(أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء) .. تستوقفنا- في مفتتح النص- آلية النداء في إطلالتها الأولى في خطاب عمرو للملك النجاشي بعد تعظيمه إياه، يقول:

(أيها الملك).. نداء وتوصيف..

إن النداء بصيغة (أيُّ) والتوصيف باللقب يشكلان معًا أول لبنتين في عتبة النص، أو مفتتحه؛ وفي كليهما معًا تقديم حسَنٌ لمفتتح الخطاب بين يدي ملك بقدر النجاشي؛ هذا فضلًا عن دلالتهما الرمزية بما اشتملاه من استمالة بالتعظيم والعرفان لشأنه وإكباره.. ومن ثمَّ رأينا الموقف قد اتخذ صفة الرسميّة في الخطاب..

إذن، يمكن القول إن عمرًا قد اتخذ من النداء آلية حجاجية تُعدُّ العتبة اللفظية الأولى التي يطلقها على الملأ؛ كي تعلن وتؤيد ما أشير إليه من إكبار عمرو، إلى جانب إجلال وفد سفارة قريش الرسمية للنجاشيّ؛ ذلك بأنهم سجدوا كلهم أجمعون عند دخولهم عليه، وهذا ما لم يفعله وفد المهاجرين.

وقد كان النداء باللقب فقط (الملك)، ولم يتبعه بالعلم، أو لم يقدم بالعلم ثم ينعته باللقب، كأن يقول: أيها النجاشي، الملك العظيم..؛ ذلك أن النداء باللقب (الملك) يعطي دلالة حجاجية لدى المتلقي لا تتوفر للنداء بالعلم.. فاللقب يشكل صورة ذهنية للمُلك ومقتضياته في يمين (المَلِك)، فضلًا عن أنه يوحي بالتعظيم والتبجيل الذي يقتضي من المتلقي أن يذعن له؛ وهنا يكون النداء باللقب قد بثَّ في نفس المخاطب (النجاشيّ) ما يمكن تسميته بالطاقة الإيجابية للكلمة، ولا شك أن ذلك الأمر منحى حجاجي مقصود من عمرو، ينتظر أن يؤتي أكله.

إن لجوء عمرو بن العاص إلى توظيف آلية النداء باللقب أو وفق ما أسميته (الاتكاء على نداء الذات الموصوفة عدولًا عن العلمية)(٢٩) يكثف مشهدًا حجاجيًا راقيًا بذهن المتلقي ويأخذ بكل جوامعه إلى النظر إلى الذات الموصوفة باللقب دون العلمية التي تجرد المرء عن لقبه (إنه يحشد بالمنادى الموصوف مهمة حجاجية مباشرة في توصيل رسالة إلى المنادى والسامع في الوقت عينه، فالوصف في سياق لنداء يضيف إعلاما أوتذكير ابمكانة المنادى وقدره من المنادِي والجمهور السامع،لاسيما أن المنادى جاء مكررًا وفي صيغة اسم الفاعل بمايشير إلى استحضاره ذاتا وحدثًا، وأنه في سياق استمرار وتجدد لمهمة كان هومولاها وحارسها وراعيها، ليحشد حجاجا مستمرًا لاينقطع).(٣٠)

ولا شك أنَّ هذا المشهد القولي (من آلية النداء) إلى جانب المشهد الفعلي الحركي المتوالد (من آلية الاستدراج) بالحركة من التعظيم بالقول والسجود تضافرا معًا؛ لتأسيس مفتتح حجاجي جيد من سفارة قريش، كاد يتصل بقوة مع تاليه من الخطاب.. لولا هذه القولة التي رددها عمرو مباشرة بعد مفتتحه، والتي جاءت مؤكدة بأداتي التوكيد الكبريين: إنّ، قد، واللتان تعكسان ثقة مفرطة من عمرو بن العاص في مفتتح خطاب قد أعدَّ له إعدادًا: **(إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء)!**

لكن الرياح تأتي بما لم تشتهِ السفن، فكان المفتتح يحمل إلى جانب بلاغة النداء والاستمالة بالسجود سقطة بيّنة غير محسوبة، تلاها تأرجح بين سداد وإخفاق.

السقطة البيّنة

- **(إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء)**؛ هذه هي السقطة البيّنة من عمرو بن العاص، وما كان لمحنَّك مثله أن يقع فيها؛ إذ كيف يُقدِّم لوفد قريش، بأنهم غلمان سفهاء، وهو الخبير بهم والعارف لأنسابهم، وفيهم من فيهم من الهاشميين الأشراف؟

- ثم أليس هو- من قبل ومن بعد- من قريش؟! والمعلوم أن كل المهاجرين كانوا من الأشراف العقلاء وليسوا من الغلمان السفهاء، لكن عمرًا أبى إلا أن يحقر من شأنهم، (إنه قد ضوى..) ولنا أن نطالع معاني الفعل (ضوى) في اللسان؛ ليتبين لنا من معاني الضعف

والهزال واللجوء ما جعله يقدمه في الاستعمال عن الفعل (وفد) مثلًا، فهؤلاء غلمان سفهاء ضاوون إلى الملك النجاشي..

- إذن، هم غلمان سفهاء ضاوون!! ولعلَّ ذلك كان راجعًا إلى اعتقاده الذي غلبته عليه نفسه أنه من غير المعقول أن يقدم النجاشي كلام الغلمان السفهاء على كلام سفارة قريش الرسمية، لا سيما أنه على رأس ذلك الوفد.

ويمكننا القول إن عمرًا قد وفق في المفتتح بالنداء، وأخفق في الجملة الافتتاحية للخطاب، وهو الذي كان يحسب أنه رمى بسهم لا مردَّ له.

ولكننا في ضوء ذلك الخطاب نفسه نلاحظ أنه قد عاد، فعادَل تلك السقطة بسهم ناجح: قال عمرو:

"فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت".

هذا القول يُعدُّ ثاني الأسهم الحجاجية الموفق إطلاقها بعد السهم الأول في المفتتح- ذلك إذا أسقطنا قولته التي أشرنا إليها منذ قليل من تعداد الأسهم الموفقة- وهذا فيه من الحنكة والذكاء الشديد ما فيه؛ لعدة مناحي، منها:

١- التأكيد على أن عمرًا يريد -على العموم من مقصد القول- أن يوغر صدر النجاشي على المسلمين الذين لجأوا إلى بلده، فهم قد فارقوا دين قومهم، وهو أمر غير مقبول؛ خاصة أن النجاشي ذو حلف مع أشراف مكة ووجهائها، ومن اللائق أن يردهم إلى دينهم الذي كانوا عليه؛ وذلك تعظيمًا لعهده معهم؛ (فهم فارقوا دين قومهم). والدين -عند العرب من قريش خاصة- يُمثِّل وجاهة اجتماعية بالإضافة إلى الوجاهة الدينية الحاصلة من العرب الحجاج إلى أوثانهم حول الكعبة المشرفة.

٢- على نحو آخر، فإنَّ هؤلاء الفارين إلى بلاده، والمستجيرين به، لم يدخلوا في دين النجاشي، وهؤلاء يعلمون أنه على دين سماوي له من القداسة والإجلال والاعتراف ما له مقارنة بما يعبد أهل مكة من أوثان. إذن، هم لم يراعوا حق الأهل، فيتبعون ما كان عليه آباؤهم، ولم يراعوا حق المضيف لهم من دين يجله ويكبره.

٣- ولعلنا نلاحظ أن تلك العبارة سيقت في أسلوب خبري يصيب هدفين متجادلين معًا، هما الوصف والتقرير الإخباري بما جاءا به من ناحية، والاستنكار الحاصل من البناء الأسلوبي للجملة بالكلية من ناحية أخرى؛ فهو (دين ابتدعوه) وهذا معطى حجاجي شديد، أو قل بالأحرى، آلية حجاجية نافذة أسماها عبد الله صولة(٣١) (المفهوم اللاقولي، أو المضمن في

القول)، وهو المفهوم المستنتج من المعطى الحجاجي السابق (دين ابتدعوه)، بما يعني أنه افتئات بغيض مرفوض، ولا مجال لابتداع دينٍ (لا نعرفه نحن ولا أنت).

- لا نعرفه (نحن)، حتى ولو كنا نعبد الأصنام وما وجدنا عليه آباءنا، ولا (أنت) أيها الملك العظيم الذي يدين بدين سماوي هو آخر ما تنزلت به أنوار السماء إلى الأرض. وللمتأمل أن يلاحظ توظيف الضمير (أنت)؛ ذلك الضمير الذي يعمق به المتكلم إلى سويداء المخاطب، حيث يصارحه بكينونة نفسه (أنت). وكأن عمرًا يصرح: أنت- أيها الملك- كما أعرفك نصرانيًا على دين عيسى يسوع؛ فهل تقبل مولاي بذلك الافتئات والدين المبتدع؟!!

هنا يطل المسكوت عنه بلسان عمرو مجيبًا عن النجاشي:

لا، لا نعرفه نحن ولا أنت.

إذن، لا نبالغ إذا قلنا إن الجملة الفعلية "ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت" تمثل منحى حجاجيًا كفيلا بالقضاء على وفد المهاجرين دفعة واحدة؛ فذلك الدين الذي جيء به بدعة غير مسبوقة ولا متخيلة، ولم يسمع بها أحد من قبل، ولا تتوافق مع عقيدة سابقة من وجهة نظر المتحدِث، وفي رأيه، أنها أيضًا لا تتوافق مع معتقد النجاشي، ومن ثم، فلا قبول لها ولا لمن جاء بها.

-المعطَى: دين ابتدعوه.

- المقتضى: لا نعرفه نحن ولا أنت.

- النتيجة: الرفض وإبطال ما جاءوا به من إفك.

- ويمكننا أن نلاحظ أيضًا قوله (جاءوا..)، وكيف أدّى الفعل (جاء) دوره الأسلوبي والبلاغي، فهو الدالُّ على أن المجيء به شيء عظيم، أو هو ما فيه مشقة، وهذا ما أكده فاضل صالح السامرائي في معرض التفرقة البيانية بين الفعلين (جاء) و(أتى) في القرآن الكريم، يقول:

- (من الناحية اللغوية: [جاء] تستعمل لما فيه مشقة أما[أتى] فتستعمل للمجيء بسهولة ويسر)(٣٢) وأنه ليس هينًا، بقطع النظر عن دلالته حسنة كانت أم سيئة. لكن الفعل (جاء) يُحدث لدى المتلقي أمرًا عظيمًا يستقبله؛ أما الذي قد جاءوا به فهو (دين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت).

ثم كان السهم الثالث: "وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم؛ فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه".

وفي هذا السهم الأخير أكثر من إشارة خفية، لكنها لا تخفى على ذكاء النجاشي، وذلك كما يأتي:

أولاً: المفهوم مما صرح به: أنَّ عمرًا ووفده من أشراف القوم، كما تعلمُ أيها الملك، وهذه واحدة.. أما الثانية، فهم (من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم)؛ فيقتضي ذلك أنَّ هؤلاء المبعوثين من وفد قريش أحرص على هؤلاء الغلمان السفهاء المارقين من أنفسهم على أنفسهم، وأحرص منهم على مكانة قبيلتهم؛ إذ ليس من المقبول أن يخرجوا على دين آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم.

والنتيجة المبنية على المعطى والمقتضى السابقين أن عمرًا ووفده أولى بهؤلاء الغلمان من أنفسهم، ووجب تسليمهم إليهم.

ثانيًا: ما لم يصرح به من المفهوم اللاقولي: وذلك المفهوم القابع من وراء كلماته، ويتمثل ذلك في إشارة خفية بالتهديد بقطع العلاقات بين مكة والحبشة، ووقف المعاملات الاقتصادية والهدايا بين أشراف مكة وبين النجاشي؛ وكأننا بعمرٍو يبعث برسالة صريحة إلى النجاشي لا تقبل التأويل، وهي أنه أُرسل من قبل أشراف مكة ورؤسائها، وذلك المقتضى، فانظر ماذا ترى؟

ثالثًا: تأصيل مفهوم السيادة وتبعاتها وفقًا لقانون القبيلة: ففي إشارة واضحة في أنٍ لأشراف قريش وحدهم الحق في المهاجرين، وعليهم الخضوع لقانون السيادة تأصيلًا للعرف القبلي، فقد أعلم عمرٌو النجاشي أن آباء هؤلاء المهاجرين وأعمامهم هم هؤلاء الأشراف (أشراف مكة)..

ومن ثَمّ فإن لهم ما للآباء على الأبناء، والحال إذًا يقتضي رجوع الفرع إلى الأصل، ورد النتائج على المقدمات، كما لو أخطأ ولد في حق أبيه، ثم جاء إلى بيتك هاربًا، ثم جاء أبوه بعد ذلك يطلبه، فالطبيعي هو أن تعيد الولد لأبيه، وأقصى ما في الأمر أن توصيه به خيرًا.

رابعًا: الإشارة إلى مهارته في فهم حجاجية قومه: نرى عمرًا يشير أيضًا في خفاء إلى أن النجاشي قد ينخدع في الحكم عليهم؛ بسبب حلاوة منطقهم وطلاقة لسانهم وقدرتهم الحجاجية في العرض والاستطراد في الدعوة إلى دين محمد، وهذا هو عين ما يخشاه. لكن الذين يعلمونهم حق العلم هم الذين عاشوا معهم دهرًا طويلاً، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وهكذا يكون عمرو بن العاص في مفتتح خطابه قد تكلم فأحسن الكلام، وأوجز فأحسن الطلب، وقد ضمّن فاتحة الخطاب حججًا وأدلة منطقية وقوية، وهي في الوقت ذاته لا تكاد تخلو من أدب جم وخلق رفيع، والمطلوب فيها صريحٌ واضحٌ وهو ردُّ المسلمين إلى مكة. وتلك غاية حجاجية كبرى يعمل من أجلها.

وفي محاولة لإتمام نجاح هذه المهمة، ووَفْقَ خطة عمرو بن العاص المنهجية، كان عمرو- وفق آلية الاستمالة- قد اتصل بعدد من كبار البطارقة المقربين إلى النجاشي، وأغراهم بالهدايا حتى استمالهم وأخذ عهدهم على مناصرته..؛ لذا نلحظ أنه ما إن انتهى من كلامه وقبل أن يتكلم النجاشي حتى أقبل البطارقة قائمين بدورهم أيضًا قائلين: (صِدقًا أيها الملك، فأسلِمْهم إليهما، وليردهم إلى قومهم وبلادهم). وهذا هو الهدف المبتغى، والسهم الأنفذ المرتجى الذي أصاب هؤلاء الغلمان في مقتل، حسبما يرمي عمرو بن العاص.

وما كان لنا أن نغادر هذا المشهد من المفتتح الخطابي بين عمرو بن العاص والنجاشي دون أن نطالعه في نافذة حكائية أخرى؛ هذا المفتتح من الحكاية هو ما طالعناه عبر المدونة التاريخية التي تناولت لقاء عمرو وبطارقة النجاشي من ناحية ووفد قريش أمام الملك العادل... لكنَّ للرواية سياقًا آخر أوقع أثرًا وأشد تأثيرًا في حكاية هذا المشهد الذي يجمع عمرًا ببطارقة النجاشي، نقله لنا عمر فضل الله على لسان الراوي في رواية (ترجمان الملك)(٣٣)

وفي البداية، سنقدم بشيء من الإيجاز لقصة وفد قريش في الحبشة؛ كما وردت في رواية (ترجمان الملك)؛ ذلك لكونها تمثل رؤية معاصرة في معالجة نص حكائي قديم، أو هي بالأحرى تمثل تصرفًا حديثًا في نَصٍّ قديم؛ هي التاريخ وقد صار أدبًا.

رواية ترجمان الملك(٣٤)

يقر الدارسون أنَّ ثمة علاقة جدلية بين الرواية والتاريخ، وهي حقيقة بدهية بوصفها الجنس الأدبي الأقدر على تقديم التاريخ، أو (التعبير عما تكنه ذوات المجتمع المتماثلة والمتنوعة [...]، ليس للحظة من اللحظات، أو فترة من الفترات، وإنما تتعداها إلى مراحل تاريخية عميقة، لتتكلم باسم جيل من الأجيال، أو طبقة من الطبقات، أو عصر من العصور) (٣٥)

ورواية (ترجمان الملك)، قدم لها الناشر بقوله: (ترجمان الملك، رواية تجمع بين الخيال والحقائق التاريخية في قالب إبداعي يأخذك إلى منطقة مطموسة من التاريخ، تتجاوز بك حدود الزمان والمكان لتصل بنا للعام ٦٠٠ ميلادية في منطقة الحبشة القديمة في وسط إفريقيا... عبر قصة الشاب (سيسي بن أبيلو) حفيد ترجمان القصر (دلمار بن أرياط) الذي عاصر الأحداث العاصفة بين النجاشي وكهنة الكنيسة في القرن السابع الميلادي، كما عاصر هجرة المسلمين الأوائل القادمين من مكة للاحتماء بمظلة عدالة النجاشي من عذاب قريش لهم. يتخلل الرواية الكثير من العلاقات الإنسانية التي تكشف جوانب من حياة البشر في تلك المرحلة الغامضة من التاريخ. كما تسرد صورًا لممارسات تجارة الرق وبيع العبيد في ذلك الوقت من خلال مذكرات النجاشي.

لا شك أن الإبداع خلق جديد كما يشهد بذلك حجاج أدُّول (٣٦) والتاريخ واقع ثابت يتم تحريكه قليلًا أو كثيرًا كلما تم اكتشاف أثر ما، أو بتحليل عقلاني جديد لمؤرخ محترف..؛ ومن هنا، يتأزم الموقف بين ثبات التاريخ وتدفق الإبداع.

ولا شكّ أنَّ الروائي يمضي وراء الخبر كما فعل محمد عبد الحليم عبد الله، وجورجيّ زيدان وأبو حديد، وعليّ الجارم وباكثير وغيرهم..

المفتتح:

ينقل لنا الشابُّ (سِيسِّي بن أبيلُّو بن دَمار) ما دار في مملكة عَلَوة العظيمة منذ خمسة عشر قرنًا بين عمرو بن العاص ووفد المسلمين الأوائل إلى الملك النجاشي، بعد أن يروي ما قاله له الزبير بن العوام جوابًا عن سؤاله عن (عمرو) و(عمارة).

من (عمرو) و(عمارة) يا زبير؟

-عمرو بن العاص بن وائل القرشي من بني سهم، أحد دهاة العرب، واضح أنه جاء في أثرنا، وعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي وهو ابن أحد سادات قريش وتجارها. ولكن لماذا دخلا الكنيسة؟ (إشارة إلى كنيسة (ماريّة) التي يقيم فيها النجاشي قداسه)...

-أنا أعرف الكنيسة جيدًا. تعال نتبعهما ونرى ما وراءهما؟

-ودخلنا كنيسة (ماريّة) خلسة، فرأينا الرجلين جالسين ينتظران، ثم رأينا أحد الخدم يهرول مسرعًا إلى بيت الكاهن (أنطونيوس) المجاور للكنيسة، ثم يعود ومعه الكاهن، ويتوجه الجميع ناحية المذبح الذي كنا قد اختبأنا خلفه. وعجبت كيف يسمح الكاهن باقتراب هذين الوثنيين (إشارة إلى العمرين) من المذبح؟ وكانوا قريبين منا جدًا فكنا نراهم ولا يروننا، فسمعنا الكاهن وهو يقول:

-حسنًا يا (عمرو).. هذه هدايا كثيرة جدًا وهي لجميع الكهنة بالكنيسة، فهل لي أن أسأل لمَ تجشمتم كل هذا العناء؟ وما المطلوب منا بالمقابل؟

الأمر سهل وبسيط يا نيافة الكاهن، وهو أنه قد أوفدَنا قومنا لنسترد بعض السفهاء

(نلاحظ ملتقى الرواية السابقة بهذه الرواية في نعت وفد المسلمين على لسان عمرو بن العاص بالسفه).

من بني جلدتنا.. **(هذا التوصيف يعادل ما سبق مطالعته في الحكاية السابقة بأنهم (من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم)**

الذين هربوا إلى بلادكم، وهم قد خرجوا من ديننا ولم يدخلوا دينكم **(دين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت)**

ولو بقوا عندكم فسوف يخربون عليكم ويثيرون الفتن مثلما أثاروها في بلادنا، وقد رأينا أن ندخل البيوت من أبوابها، وأنتم أبوابها فلجأنا إليكم لتقفوا معنا حين نلقى النجاشي.

كما نلاحظ أن الروائي يحتفظ ببعض المفردات في تحولات الصياغة في متن النّص إلى جانب تحولات الخبر

-حسنًا، ومتى سيكون لقاؤكم بسيدنا النجاشي؟

-غدًا صباحًا يا نيافة الكاهن نزوره أنا و(عمارة) و(عبد الله)، وأرجو أن نراكم في مجلسه، وتقوموا بالواجب.

ولنترك سيسي، ترجمان الملك على حداثة سنه خلفًا لجده المتنيح (دلمار)، وهو الراوي الذي شهد الحدث صباحًا، يتصرف في النَّص تصرف مَن رأى الحدث وشاهده لا مَن سمع به، أو نُقِل إليه؛ وهو في الأخير يحيل التاريخ أدبًا يُحكى.. يقول:

-وصل الكهنة أبكر مما اعتادوا كل يوم وجلسوا...، وبعد قليل أعلن كبير الحراس في القصر أن عمرًا وعمارة يستأذنان في الدخول لمقابلة الملك فأذن لهما، ودخل الرجلان وسجدا تحية للملك، ثم نهضا واقفين.

كان أحدهما قصير القامة، قوي البنية، مرن الأعضاء عريض الصدر، له عينان ثاقبتان وفوقهما حاجبان غزيران، وكان أدعج أبلج، وكان فمه واسعًا، ووجهه ينم عن القوة من غير شدة وتلوح عليه لائحة البشر والأنس، وكان دائم الابتسامة، وعرفت فيما بعد أنه (عمرو)، كان يلبس جبة فاخرة تدل على ثراء وشرف، وأما الآخر (عمارة) فقد كان رجلًا طويلًا جميلًا وسيمًا فاتنًا متوازن الجسم قوي البنية، شديد الاعتداد بنفسه له خصلات شعر جعلها جدائل وأرسلها فوق كتفيه، وكان يلبس جبة تظهر عنقه وشعر صدره، وبينما كان عمرو يخاطب الملك ويحدثه كان "عمارة" منشغلًا بالنظر إلى الجواري في القصر ومغازلتهن والغمز لهن بعينيه وتحريك حاجبيه.

وتستمر الرواية على لسان سيسي، وتشير إلى أن النجاشي أجلسَ عمرًا بجِواره على سرير المُلك تعبيرًا عن الحفاوة، وأنه سأله عن حاله وسبب قدومه إلى أرض علوة، وعلى الفور نهض "عمرو" وقدم التحية مرة أخرى للنجاشي، وتحدث بصوت عالٍ.

والسؤال هنا:

إلى أيِّ مدى تصرَّف صاحب الرواية الحديثة في الأخبار القديمة؟

أمَّا الأسئلة المتوالدة في سياق الرواية البنائي، فيمكن أن تأتي على هذا النحو:

إلى أي مدى استطاع عمرو بن العاص وصاحبه أن يستميلا الكهنة، ومن بعدُ الملك النجاشي؟

وهل أدت آلية الاستمالة دورها الحجاجي في صناعة الحكاية؟

وماذا لو لم يكن عمرو قد فطنَ إلى هذه الآلية؟ أكان ممكنًا الوصول إلى الجلوس على سرير النجاشي في حضرة وفد قريش، والمسلمين الأوائل؟ ثم كيف

كان شعور المسلمين الأوائل من ذلك المشهد؟ وهل كان تقديم الهدايا للملك النجاشي في حضرتهم، أم كان في غيابهم، والتقى به منفردًا، كما صنع مع الكهنة في كنيسة (مارية)؟

كيف كان تصور المسلمين الأوائل للنجاشي العادل كما قدمه الرسول لهم، إذا هم شاهدوا أو علموا بتقديم عمرو الهدايا للنجاشي، وقبول الأخير لها؟

وهل كان النجاشي سيرضخ لطلب عمرو بتسليمهم له؟

قد يجيبنا الراوي عن بعض تلك الأسئلة في بعض نتائجها.. ربما، لكننا نجد أكثرها بلا إجابة تقريرية وافية، وهذا ما يشكل للمتلقي واحة من التخيل في مدارات لا تنتهي تفضي إلى آليات حججاجية أخرى للمسكوت عنه والمفهوم اللاقولي في ثنايا الخطاب.

نعود إلى فواتح الخطاب على لسان عمرو بن العاص حسب رواية سيسيّ، وقد كان حاضرًا شاهدًا مجلس الملك.

-(أيها الملك المعظم، لقد لجأ إليكم بعض الغلمان السفهاء من بلادنا، وقد فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم بل جاءوا بدين جديد مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا أشراف قومنا إليك من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتأمر بردهم إلى بلادهم، ويقينا إن أشراف قومهم أعلم بهم وأخبر بما يعيبون عليهم مما جاءوا به)(٣٧)

إلى هنا وثمة مواطن عدة تلتقي فيها رواية سيسي مع روايات التاريخ في توصيف ذلك المفتتح، بيد أن رواية سيسي تضيف ما لم يذكره لنا رواة التاريخ على هذا النحو مما حكاه لنا، قال:

(لاحظت أن الكهنة ينظر بعضهم إلى بعض في تعجب مصطنع أثناء حديث (عمرو)، ثم استأذن الكاهن (أنطونيوس) فأذن له النجاشي، فوقف وقال: سيدي الملك المعظم، لقد صدق هذا العربي، فالخير كله في أن تأمر بالقبض على هؤلاء الغلمان السفهاء على الفور وتسلمهم لهذا الوفد، ولا شك أنهم لا يستحقون أن تراهم أو تكلمهم أو تسمع منهم شيئًا)(٣٨)

هذا المشهد الحكائي الذي صنعه صاحب الرواية الحديثة، والذي يمضي وراء الخبر، جدير أن يعيد رسم الصورة التي تناقلها الإخباريون عن لقاء عمرو بن العاص مع النجاشي ووفد المسلمين؛ إذ إنه يضيف دورًا لم يكن معروفًا عن الكهنة الذين حضروا اللقاء، ويسجل خطابًا لكبيرهم (أنطونيوس) يدعم فيه خطاب عمرو بن العاص، ويتطابق مع الهدف الذي يرمي إليه عمرو، بل يقع فيه الحافر على الحافر العَمري قصدًا.. نسمعه يقول في سياق معطى حجاجي:

- لقد صدق هذا العربي.. (في إشارة إلى عمرو بن العاص)

وذلك بمقتضى: ما عرف عن عمرو بفعل صداقته الطويلة..

إذن، فالخير كله أن تقبض على هؤلاء الغلمان السفهاء على الفور وتسلمهم لهذا الوفد...).
وتلك هي النتيجة!
لقد توافرت لهذا المشهد الحكائي كافة أركانه الحجاجية من معطى ومقتضى ونتيجة؛ فالمعطى الحجاجي قدمه (أنطونيوس) ببراعة ويسر؛ ذلك لأنه ممهد له قبلًا على لسان عمرو، والمقتضى معلوم لديه، والنتيجة المرجوة متحققة لا محالة، إذ تلقاها النجاشي مكررًا، ولم يبق إلا إشارة منه لتسليمهم لعمرو بن العاص، وواضح أيضًا نتائج آلية الاستمالة بالهدايا والعطايا التي تلقاها (أنطونيوس) ورفاقه، لذلك كان اللقاء ممهدًا له أحسن التمهيد.

فإلى أي مدى كان ذلك داعمًا على أرض الواقع، سيّما أن عمرًا سعى إلى ما يمكن وصفه بالتسلّح بكل الآليات الحجاجية اللازمة لمفتتح خطابه بين يدي النجاشي؟

وإلى أي مدى كانت المعاملة الدرامية(٣٩)Dramatic-treatment: حيوية في إظهار حديث الشخصيات المتحاورة وبيان سلوكهم الدرامي؟

الواقع أن ما جاء على لسان سيسيّ الراوي لم يدَعْ لنا فرصة التخيل أو التخمين، أو السير في اتجاه المعطى والمقتضى والنتيجة، بل جاء على العكس تمامًا من مخيّلة المتلقي..

وهنا يمكن الإشارة أيضًا إلى ما يطلق عليه السرديون: فرضية الصوت المزدوج(٤٠):Dual-voice hypothesis؛ إذ قدَّم الراوي لردّة فعل النجاشي في متوالية من الاستفهام الإنكاري المتصاعد، مسبوقةٍ بتوصيف لحالة النجاشيّ، والراوي على مقربة منه، شاهدًا على تفاصيل المتوالية، منتهيةً إلى طلبٍ مبنيّ على معطى شرْطيّ!

أما صوت الراوي فنسمعه في ذلك التوصيف السابق متواليةَ ردة الفعل:

(ما رأيت النجاشي غاضبًا مثلما رأيته في تلك الساعة، فقد احمرَّت عيناه، وانتفخت أوداجه وامتلأت عروق وجهه...) ذلك هو التوصيف المقدّم للمتوالية، فضلًا عن أنه يمثل الموقف اللغوي الخاصّ بالسارد\ الراوي (سيسيّ) القريب من الحدث، بوصفه شاهدًا عليه.

أما الصوت الآخر المزدوج فهو صوت النجاشي.. قال:

-ما هذا الذي تقوله أيها الأب المحترم؟

(ردة فعل أوليّة تحمل استفهامًا إنكاريًّا يحمل لهجة غضب غير مسبوقة بحسب التوصيف الممهد من السارد).

-كيف تريد منِّي أن أُسلم قومًا لجأوا إليَّ واختاروا بلادي من بين بقية البلاد؟

- وكيف تريد منِّي أن أكيد لهم وقد جاوروني وأكلوا من طعامي ونعموا بالأمن في بلادي، ثم أغدر بهم وأسلمهم لأول قادم يطلبهم دون أن أسمع منهم، أو أتبين حقيقة أمرهم؟

(متوالية شديدة اللهجة من ردة الفعل في اتجاه تصاعد الأحداث.. مع ملاحظة تكرار للصوت اللغوي المجسد للمِلكيَّة بصفته وبشخصه: منِّي، إليَّ، بلادي، جاوروني،.. وذلك يعطي انطباعًا مباشرًا بأن الذات الملكية لدى النجاشي قد أحستْ بالإهانة، فلجأ إلى الدفع بعدد من الظواهر اللغوية التي تؤكد اعتداده بذاته ومُلكه)!

-إن كان هذا يشبه ديننا ويشبه أفعال السيد المسيح فأخبرني.

إن هذا الخطاب النجاشيّ أشبه ببركان فجَّرَ الجبل الذي رست واستوت عليه سفينة عمرو والأب (أنطونيوس) ومعه الكهنة الذين يظاهرونه.. ما حمل النجاشيّ على هذه المتوالية من ردة الفعل الغضبى في مشهد درامي متصاعد أدَّى إلى تعقيب صريح من النجاشي، يمكننا القول إزاءه إنه يُعدُّ بمثابة (التقييم Evaluation) (٤١) المطلوب إجراؤه على الفور من قِبل (الأب أنطونيوس)..

فالأب أنطونيوس مدفوعًا بهدايا عمرو يصف خطاب الأخير في حضرة النجاشي بأنه خطاب صدق (لقد صدق العربيّ)! وهذا الوصف، كما تم الإشارة إليه قبلًا، يُعدُّ نتيجة حجاجية لخطاب عمرو المتقدم، في الوقت نفسه الذي يبرز كونه معطى حجاجيًا يستند إليه النجاشيّ في ردّة فعله على تعقيب الأب (أنطونيوس).

الخاتمة والنتائج

بعد هذه السياحة الموجزة في مدونة عمرو بن العاص لاستكناه أخباره ومحاولة الوقوف على بعض الآليات الحجاجية في صناعة الحكاية، بالاعتماد على الدراسات النقدية الحديثة في مجال السرديات، حاول البحث تتبع الخبر وصناعة الحكاية في ضوء الكشف عن بعض الإشكاليات الأولى بين النص بوصفه معطى تاريخيًا أو خطابًا تاريخيًا، الغاية منه إثبات واقعة حصلت في زمن ما، إلى خطاب تخييلي أدبي قصد به الراوي غايته من إمتاع الأدب وصنعة التخييل، فضلا عن الكشف عن ردود أفعال معينة أحدثها القارئ (المتلقي) عبر انزياحات الخبر والحكاية من التاريخ إلى التخييل؛ أو فيما يطرح من إشكالية صناعة الحكاية التاريخية أدبيًا مرهونة بظرف الراوي والسياق لإنتاج نص يخرج من تأطيره التاريخي إلى سياقه الإبداعي؛ ليصير أدبًا يمضي بالقارئ من يقينية الثبوت المعلوماتي إلى جماليات التعبير وشعرية السَّرد وحبكة البناء، من جمود الإطار إلى مرونة السَّياق، من الخبر إلى الحكاية، ومن الحقيقي إلى التخييلي، ومن خلال هذا التوجه تم التوصل إلى ما يأتي:

a. توصل البحث إلى أن الخبر والحكاية في مدونة عمرو يستبطنان سمات ومظاهر جمالية (لفظية "لفظية وتركيبية ودلالية"، وأن بنية النص الأدبي بنية ثانوية، والبنية الأوليةهي بنية اللغة، وأن الخبر والحكاية كل منهما يتكون من مجموعة من المتواليات تتحرك من خلال محور الإزاحة إلى النمط الحكائي السردي المشكّل لجماليات اللغة والإبداع.

٤- تتسم بنية النص في مدونة عمرو بمجموعة من الخصائص والآليات الحجاجية التي تتوازي مع البنية السردية للخبر أو للحكاية، وقد عالج البحث ذلك المنحى في كل من الخطاب الحجاجي التداولي: البناء الحجاجي (أي الحكاية من خلال دراسة الزمن في الكشف عن تتابع الأحداث، وتحديد مدى تطابقها مع ترتيبها الحقيقي من خلال دراسة الشخصية في التأثير، وتحديد تلك التقنيات الفنية وتوظيفها – وفق منظور خاص- في بناء نص ممتد)، وبعض خصائصه الحوارية (من مثل التشخيص والمقام)، والمناظراتية (المناظرة والتناص والحكاية والاقتباس) والبلاغية (من مثل الاستعارة والمثل والسرد الحواري) هذا إلى جانب الكشف عن البنى الحجاجية (الأفعال الإنجازية والروابط الحجاجية) وصناعة الحكاية، كل أولئك باستنطاق النص في سياقه، وتحليله وفق

الآليات الحجاجية التي شكّلت المعطى الحكائي، والمقتضى الفضائي للحدث التاريخي الذي صنعت من خيوطه الحكاية أو صيغ الخبر؛ وذلك من مثل الاستدراج والاستمالة والتكرار خاصة وأثرهما في مخيلة السامع أو المتلقي؛ ذلك أن «مبدأية فن القص العربي القديم، تستند إلى التكرار الذي يكون فيها توكيديًا وليس سردًا خارجيًا، بل هو يكتسب فاعليته من خلال النحت المستمر في مخيلة السامع؛ وذلك لغاية الوقوف على تأويل أو تفسير كاشف لكثير من القضايا ذات الصلة.

***

المصادر والمراجع

١. انظر: فن القص بين النظرية والتطبيق، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٥م.ص ٩٤.

٢. نفسه.

٣. التحليل النصي، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، منشورات التكوين، دمشق سورية، ومنشورات الزمن، الرباط٢٠٠٩، ص٣٧.

٤. فاصل أول في بعض أنواع السرد يسبق، ولكنه لا يشتمل على التعقيد.. المصطلح السردي، تأليف جيرالد برنس، مذكور، ٣٦٨\١٨٦

٥. مقال النقد الأدبي وحرفة السباكة. انظر: أخبار الأدب المصرية- العدد ٨٦٤- يناير ١٩٩٩م.

٦. انظر بلاغة السرد- محمد عبد المطلب- الهيئة العامة لقصور الثقافة- مصر- سبتمبر ٢٠٠١، ص٣١

٧. انظر:.عروس الأفراح- بهاء الدين السبكي- ضمن شروح التلخيص- عيسى البابي- القاهرة- ١٩٣٣ ج١: ١٢٦.

٨. انظر: كتاب الصناعتين- أبو هلال العسكري- تـ: مفيد قميحة- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٩٨٤:١٥

٩. بلاغة السرد النسوي- د. محمد عبد المطلب- سلسلة دراسات نقدية- الهيئة العامة لقصور الثقافة- مصر- ط١- ٢٠٠٧: ص١٥.

١٠. انظر: المسند للإمام أحمد بن حنبل، ص ص ٤٣١، ٤٣٢.(وقد وردت الرواية في غير مصدر، انظر: شرح صحيح مسلم، حسن أبو الأشبال، ج٩، ص٩٣.ورواه الحاكم في (مستدركه) من طريق ابن إسحق عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، قال: بعثنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى النجاشي ثمانين رجلا... فذكر الحديث بطوله..وقال ابن إسحق: إن المؤمنين وهو بالحبشة لما بلغهم أن النبي هاجر إلى المدينة رجع منهم إلى مكة ثلاثة وثلاثون رجلا.. والرواية رغم تعددها إلا أنها تتفق مع غيرها في موضع الشاهد من

المفتتح. وانظر المكتبة الشاملة http://shamela.ws/browse.php/book-37026/page-1804

١١. الخطابة عند أفلاطون لها المعنى نفسه الذي كان شائعًا في عصره وقبل عصره، وهو دراسة وجوه الكلام وكيفية تأثيره، وكان السوفسطائيون يسعون إلى تعليم الناس وتلقينهم كيف يستطيع المرء إيهام الحكام والجماهير بحجته. لكن أفلاطون لم يكن يرى اتخاذ الخطابة وسيلة للإيهام. يقول أفلاطون على لسان تلميذه سقراط في ماوره "فيدروس": ليس فن الجدال في الآراء مقصورًا على دور المحاكم والمجتمعات السياسية، ولكن من الواضح أنا إذا عددناه فنا من الفنون بعامة، فإنه يكون هو هو في جميع أنواع الكلام، أي يكون هو الفن الذي يستطيع المرء أن ينتج تشابهًا بين كل الأشياء التي يمكن أن ينتج بينها ذلك التشابه". لمزيد من التفاصيل، انظر: أفلاطون: فيدروس أفلاطون، فايدروس، ترجمة وتقديم، د. أميرة حلمي مطر، دار المعارف مصر، ط١. وانظر: النقد الأدبي الحديث، د. غنيمي هلال، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، نشر١٩٩٧، ص ص ٣٠، ٣١.

١٢. نفسه، ص٣٦.

١٣. إنّمصطلح (النصيّة) هنا يتوافقمعكثيرٍمنالنصوصالتي تعتمدالتعددالداخلي، أومايسميه د.محمدعبدالمطلب (النصّالتوليديّ) الذي ينشأ عنه حالات ولادة مستمرة على حد تعبيره، انظر: قراءة ثانية في شعر امرئ القيس- محمد عبد المطلب-دار الحرية بالقاهرة، ١٩٨٦، ص٩٦

١٤. عبد الله محمد البهلول، مقالة بعنوان "فواتح الأدب في التراث النقدي..قضايا الإصطلاح وضوابط الافتتاح" مجلة عالم الفكر، ع: ١٧٠ (أكتوبر-ديسمبر) ٢٠١٦م.

١٥. بلاغة السرد، ص ١٨.

١٦. نفسه

١٧. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه: د.\أحمد الحوفي، ود.\بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٢ (٢١٩٧٣)، القسم الثالث، ص ص٩٦-١٢٠

١٨. النقد الأدبي الحديث، مذكور، ص١٣٧.

١٩. العنوان والاستهلال في مواقف النفرّي، دراسة جمالية، عامر جميل شامي الراشدي، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، إشراف د. إبراهيم الحمداني، ٢٠٠٥، ص٧٩.

٢٠. جاء في لسان العرب: دَرَّجَه إلى كذا واستَدْرَجه، بمعنًى، أَي أَدناه منه على التدريج، فتَدَرَّجَ هو. وفي التنزيل العزيز: "سنستَدْرِجُهُم من حيثُ لا يعلمون"؛ قال بعضهم: معناه سنأْخُذُهم قليلاً قليلاً ولا نُباغِتُهم. كما يقول أهل اللغة، فإنّ للاستدراج معنيين: أحدهما: أخذ الشيء تدريجاً؛ لأنّ أصل الاستدراج مشتق من (الدرجة). والمعنى الثّاني للاستدراج هو اللّف والطّي، كطي السّجل أو «الطومار» ولفّه. وهذان المعنيان أوردهما الراغب في مفرداته، إلاّ أنّ التأمل بدقّة في المعنيين يكشف أنّهما يرجعان إلى مفهوم كلي جامع واحد: وهو العمل التدريجي. وانظر: د. محمود عبد الحفيظ، أدبية النص التاريخي، دراسات في أخبار معاوية، (فصل بعنوان: الاستدراج والحجاج).

٢١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه: د.\أحمد الحوفي، ود.\بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٢، القسم الثاني، ص٢٥٠.

٢٢. مقال د. عبد الرحمن بودرع، مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، http://www.m-a-arabia.com/site/15676.html

٢٣. عيار الشعر، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص٤٤.

٢٤. كتاب الصناعتين، حققه الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص٤٨٩.

٢٥. المثل السائر، مذكور، ٣|٩٦.

٢٦. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، مصر، دار الكتب الخديوية، \٣٠.

٢٧. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٦٤، ومن طرق التمويهات التي ذكرها حازم: طرق محل الكذب من القياس عن السامع- اغتراره إياه ببناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباهها بما يكون صادقاً- ترتيب القياس على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهه

بالصحيح.- بالأمرين الأخيرين معًا.- بإلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب بضروب من الإبداعات والتعجبيات تشغل النفس عن ملاحظة محل الكذب والخلل الواقع في القياس.

٢٨. لمزيد من التفاصيل، انظر: http://www.abahe.co.uk/reports-and-memos/reports-and-memos-16.pdf

٢٩. انظر: الحِجاج في الشعر العربي، دراسة أسلوبية، ديوان الشريف الرضي أنموذجًا، رسالة ماجستير مخطوطة للباحث، إشراف الأستاذ الدكتور محمود عبد الحفيظ، مطبوعات كلية الآداب ٢٠١٥م، ج الزقازيق، ص١٠٩.

٣٠. نفسه.

٣١. انظر: الدكتور عبد الله صولة، لحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي - بيروت الطبعة الأولى - ٢٠٠١م، ص٢٨٨.

٣٢. الدكتور فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عماد، ص٥٩٧.

٣٣. ترجمان الملك، عمر فضل الله، دار نهضة مصر، ط١ ٢٠١٣م، ص١٩٧.

٣٤. سبق التعريف بها، والتقديم لمضمونها في غير موضع في هذه الدراسة.

٣٥. عبد الرحيم حامد الله، فن الرواية بين الولادة والتوطين، علامات، المجلد ١٤، الجزء ٥٣، سبتمبر ٢٠٠٤\ رجب ١٤٢٥ه، ص: ٥٥٨. وانظر: الرواية والتاريخ (دورة عبد الرحمن منيف)، مذكور، ص٢٢٣.

٣٦. حجاج أدُّول، الرواية التاريخية (دورة عبد الرحمن منيف)، شهادات، مذكور، ص٨١.

٣٧. ترجمان الملك، ص١٨٩.

٣٨. نفسه.

٣٩. وفقاً للمصطلح الذي وضعه جيمس؛ فالمعالجة الدرامية هي التحويل المشهدي للمواقف والوقائع، وعلى وجه التحديد حديث الشخصيات وسلوكهم. راجع H.james 1972\ راجع: الدراما والبانوراما والمعاملة التصويرية. المصطلح السردي، ٣٦٨\٦٨.

٤٠. الافتراض الذي ينتج وفقاً له في الخلط غير المباشر المطلق المزج بين صوتين أو موقفين لعويين الخاص بالسارد والخاص بالشخصية. راجع: -Pascal 1972 المصطلح السردي، ٣٦٨\٦٩.

٤١. وهو وفقاً لاصطلاح لابوف مجموعة سمات السرد التي تشير إلى تميزه، وجهات السرد التي تظهر لنا الأسباب التي تجعل الواقائع والمواقف جديرة بالسرد.. راجع: المصطلح السردي، ٣٦٨\٧٩